المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

حول كتاب « التعازي والمراثي » للمبرد

بقلم
محمد بن تاويت الطنجي
المغرب الاقصى ـ تطوان

هذا الكتاب القيم ، يعتبر تضخيما لما ورد في أواخر كتاب الكامل ، للمؤلف نفسه ، فهو وان قصد به مناسبة خاصة ، نجمت عن موت صديق المؤلف الحميم ، القاضي اسماعيل بن اسحاق الازدي ، احد اعلام المالكية ، والذي خصص له القاضي عياض في ترتيبه ترجمة وافية لم ينل مثلها منه ، فيما راينا ، وفيما عدا مالك ، احد من هؤلاء المالكية ـ الا ان اصله في الكامل ، وحتى المؤلف نفسه نجده يقول : « كنا ذكرنا اشعارا من اشعار المتقدمين ، فقلنا نمليها على وجهها ، ثم رجعت الى انها مجموعة في الكتاب الكامل على شرح جميل اعرابها ومعانيها ، فان رجعت رجعت معادة ، وهو مايوخذ من ثم » .

اذن ، فكأن المؤلف سها ، عما ورد في كتابه الكامل ، ثم تذكر ذلك ، ولكنه لم يطل هنا بما ثم من شرح واعراب وتبيين معنى وليس هذا في الواقع ، خاصا باشعار المتقدمين ، بل في الكامل من اشعار المحدثين المعاصرين ، ما بعضه اكمل مما ورد في هذا الكتاب مثل قصيدة ابراهيم بن المهدي في رثاء ابنه ومثل مرثية عبدالصمد بن المعذل لعمرو بن سعيد بن سلم ومثل مرثية العتبي لولده واخرين . كما ان المراثي والتعازي ، تناولها معاصرون للمؤلف ، في كتبهم ومجامعهم ، وان لم يخصصوها آنذاك بالتاليف ، مثل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، خاصة ، ومثل ابي تمام في الباب الذي خصصه للمراثي من ديوان حماسته ، ففي هذا كثير من النصوص كما في البيان وزيادة وبعد نلقي نظرة على صفحات الكتاب ، لنسجل على بعضها ما لاحظناه عليه .

اولا ـ فيه بعض الشخصيات ، ذكرت غفلا ، كأنها كانت معروفة ، لعصر المؤلف ، ولكنها غمرها الزمان ، فاصبحت في حاجة للتنقيب عنها وهذا ما يجعل الانسان في شك من ضبطها ، ضبطا علميا ، مثلا وردت هذه العبارة ، قال ابو الحسن عن ابي بكر عن ابي المليح .

ابو الحسن ، هذا معروف في الكتاب هذا وفي الكامل . بانه المدائني الذي اكثر المؤلف عنه الرواية . اما ابو بكر وابو المليح ، فالبحث عنه متعب ، وجزى الله خيرا الجاحظ في بيانه ، وعبد السلام هرون المحقق ، الذي هدانا الى ان ابابكر اسمه سلمى بن عبدالله او روح . وهو راو عن الحسن وابن سيرين وابى المليح ، كما هنا ، وان اسم هذا ، عامر او زيد او اسامة بن عمير . وكلاهما ذكرهما الجاحظ في خطباء هذيل . ومما نقل عن التهذيب ايضا انه ابن اسامة وتكرر ذكر ابى بكر في البيان كما تكرر ذكر ابى المليح فيه .

وورد في صفحة اخرى عن الاصمعي ، ان معتمر بن سليمان لما مات اخوه حزن فكان يدعو الله ان يراه في المنام ، وانه لما ذكر ذلك لشعيب بن الحبحاب ، قال له « ان الحزن ينضو عن ابن آدم ، كما ينضو صبغ الثوب ، ولو بقي على ابن آدم قتله » .

فمن شعيب بن الحبحاب هذا ؟ لقد اجهدت نفسي في التعرف عليه ، فوجدته يتردد في كتاب المصاحف للسجستاني ، كأحد رجال الحديث والقراءات ، ثم وجدته مذكورا بقصته ، وفيها اختلاف بسيط ، في كتاب البصائر والذخائر ، لابي حيان التوحيدي ، الا ان محقق الكتاب ابراهيم الكيلاني اثبته مصحفا ، هكذا « الجحاف » وهذا لايكفي في التعرف عليه كما نرى .

فهذا مثال اخر من تلك الاعلام التي وردت مجردة ، وحيرتنا في امرها ، اما لكونها كانت مشهورة ففمرت فيما بعد ، واما لكوننا بعيدين عن مجال الرواية والرواة وربما كان الامران في شانها .

وهناك نوع آخر من الحيرة ازاء اعلام اخرى ،

فقد يرد علم في صفحة ، ثم يرد في صفحة اخرى ، مغايرا لما ذكر به لاول الامر ، وربما ذكر مرة ثالثة مغايرا ، لهما معا .

ومثالا لهذا ، نجد رجلا ورد اولا باسم زبان بن منظور ، ثم ورد باسم وكنية « ابي وهب زبان بن منظور بن زبان » ثم ورد باسم « منظور بن سيار » .

فارتبكنا ازاء هذه الاعلام مع الكنية ؛ هل اصحاب الاعلام اشخاص متعددون ، وهو الظاهر ، ام صاحب الكنية هو صاحب الاعلام كلها وبعد استشارة كتب التراجم والانساب والاخبار اتضح لنا ، ان اباوهب انما هو منظور بن زبان بن سيار ، صهر الحسن الذي تزوج ابنته ، فكان منها الحسن المثنى ابو عبد الله ، والد ادريس الاكبر والحسن المثلث وابراهيم ، وليس هو زبان بن منظور ، ولا هو منظور بن سيار ، على ان هذا ابوه ، ولا هو زبان بن منظور بن زبان ، بل هو كما قلنا وعرف في التاريخ والانساب ، بانه ارتد ثم اناب ثم تزوج امراة ابيه على عهد عمر ثم فارقها ، ثم مانع في تزويج ابنته من الحسن ، بعد ماقتل زوجها بوقعة الجمل ، ثم رايناه يشاهد عبدالله وابراهيم والحسن ابناء الحسن المثنى ، وربما كان للتصحيف يد في هذه الاضطراب ، اعني التحريف بالحذف آنا والتقديم والتاخير والزيادة احيانا اخرى ونحن اميل الى هذا التدخل بدليل ورود بيت اثر قصة منظور بن سيار ، ذكر فيه « ابن عمار » فهذا هو التصحيف بعينه فيه ومن قبيل الاعلام ايضا ، نجد في الكتاب ابا لامراة ، تدعى هائلة ، باسم منقذ بن سليمان فمنقذ معروف في الانساب القبلية ، ولكن سليمان ، بعيد كل البعد ان يكون موجودا بهذا الاسم عند العرب وفي عهودهم الساحقة فهذا الاسم لم يعرف عندهم ، الا بعد مساكنة اليهود اياهم ، وفي يثرب بصفة خاصة ، حيث وجدنا من بني النجار من الخزرج ، سليمان بن الحرث الذي قتل في احد ، ولانعرف غيره ممن سمي بهذا الاسم على فجر الاسلام الاول ، ولم يشع الا بعد ان سمى عبدالملك ابنه به ونستعرض مثلا اسماء لاجداد النبي عليه السلام ، فلا نجد منها من اسماء الانبياء لبني اسرائيل ، الا الياس ، وهذا غريب ، وربما كان من قبيل الاتفاق ، ومن القواعد المقررة انه لا يوجد من الاسماء العربية للانبياء الا اربعة وهكذا اذا قرانا قوله تعالى « وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء » الى قوله « ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داوود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين ، وزكرياء ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا » فانما لا نجد عدا من ذكرنا ، على فجر الاسلام ، الا ابراهيم ابن النبي عليه السلام .

قد يقال ، ان اسماعيل ، عرف ابا لاعظم قبيل من العرب ، فكيف تقول ان العرب لم يتعرفوا على الاسماء العبرية ويستعملوا بعضها الا عندما ساكنهم اليهود بيثرب خاصة)

والجواب بسيط فمعرفة الاسماء شيء والتسمية شيء آخر ، فهذا آدم ابو البشر ، وهذه حواء امهم ومع هذا لا نسمي لا باسم الاب ولا باسم الام في العربية عامة ، وان كان المسيحيون من الاوربيين خاصة يسمون بهما .

على ان هذا الاسم ، سليمان ابا المنقذ ،ربما يكون واقعا من قبيل التصحيف ، بدليل ان هائلة ايضا ، تصحفت بهيلة ، وهي هائلة ، كما في كتاب الاشتقاق لابن دريد ، الذي ابان كغيره عن وجه التسمية بهائلة ، وافظع من هذا ان سليمان هذا لم يرد بكتاب نسب عدنان وقحطان للمبرد نفسه.

ويتصل بالاعلام ماورد فيها من نسب مضطربة ، لاشك انها من الناسخ ، كان نجد في قبائل غطفان « سعد بن قيس بن مرة وفزارة وعبس بن بغيض » والمعروف لنا ان من غطفان، اشجع وبغيضا ، وان من بغيض ذبيان وعبسا ، وان من ذبيان فزارة وان ابا سعد هو قيس عيلان، وليس قيس بن مرة الى اخر ما يحتاج الى تحقيق في هذا ، وما فيه من تحريف ، كما ورد بلال الاشعري بكنية « ابي بلال » ومنه « فزارة بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وبنو عبس بن ريث ، فكان عبدالله وذبيان اخوين » وحرب الانصار الاوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة ، فحرب الانصار حرب بعاث ، وحرب بعاث ابني بغيض الخ » .

فهذا تصحيف وتحريف لاشك اذ ان غطفان ولد ريثا وبغيضا واشجع ، ومن بغيض ذبيان ، ومن ذبيان عبس وانمار ، كما في نسب عدنان وقحطان للمؤلف ، وكما في الاشتقاق لابن دريد ، اما « عبدالله » الوارد في ذلك ، فلعله مصحف عن عبس ، فلم يكن عبدالله اخا لذبيان ، بل ابنا لغطفان ، فهو اخ لريث ، ثم ان « بعاث » الواردة

اخيرا لا محل لها بالمرة ، فهي مقحمة تحريفا . نترك الاعلام ، وفيها من نحو ما تقدم كثير ، والغالب انه تصحيف وتحريف ، ولنتوجه الى غيرها ، مما لابد لغير المبرد فيه ، منه هذه الرسالة ، التي عزاها الى النبي عليه السلام ، كاتبا بها الى معاذ بن جبل معزيا في ابنه :

من محمد رسول الله ، الى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد فان انفسنا واهلينا وأموالنا ودائع الله ، جل ذكره ، وعواريه المستودعة ، يمتع بها من يشاء ، الى اجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم ، فامر بالشكر اذ أعطانا وبالصبر اذا ابتلانا، فكان ابنك من مواهب الله الهينة ، ومن عواريه المستودعة ، التي يمتع بها من يشاء الى اجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم ، وقد متعك الله به في غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كبير . فالصلاة والرحمة والهدى ، يامعاذ ان صبرت واحتسبت فلا يذهبن جزعك أجرك ، فتندم على ما فاتك لو قدمت على ثواب مصيبتك ؟ قد ارضيت ربك ، وتنجزت موعوده ، وعلمت ان المصيبة قد قصرت عنك ، واعلم ان الجزع لايرد ميتا ، ولايدفع حزنا ، فاحسن العزاء ، وتنجز الموعد وليذهب أسفك ما هو نازل بك . فهذه رسالة لاشك في وضعها ، ولا نعرف للنبي رسالة من هذا القبيل ، وليس من المعقول ابدا ان يدعو النبي احد كتابه ليملي عليه هذه الرسالة في امر خاص لايابه له المؤمنون ، وقد غاب عن المؤلف نفسه انه قال « ومن احسن التعزية ابلاغ في ايجاز » ومن احسن من النبي في هذا القول وفي غيره ؟ وزيادة على هذا كله ، ففي الرسالة من التكرار ما يربأ عنه النبي عليه السلام ، مثل « عواريه المستودعة يمتع بها من يشاء الى اجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم » فقد تكرر هذا بنصه في الرسالة ، فما احراه ان يكون من واعظ لبليد او متبلد والمبرد قد يقع في مثل هذه النسبة، فقد يلفق ، وهو لايدري ، أبياتا من قصيدتين ، يجعلهما من قصيدة واحدة ، كما حصل منه في هذه

يانافعا من للفوارس أحجمت
عن شدة مذكورة وطعان

علم الله اني شعرت بنفور من الشطرة الاخيرة ازاء الاولى ، فاتجهت الى البحث واذا بي اجد صاحب الاغاني ، يذكر قصيدتين لنفس الشاعر ، يرثي باحداهما ابنا له وبالاخرى ابنا آخر ، يقول في احداهما راثيا لابنه عامر :

عيني تجود بدمعها الهتان
سحا وتبكي فارس الفرسان
ياعام من للخيل لما أحجمت
عن شدة مرهوبة وطعان

ويقول في اخرى راثيا لابنه نافع :

يانافعا من للفوارس احجمت
عن فارس يعلو ذرى الاقران

وهي الرواية الصحيحة ، كما عند الاصفهاني في الاغاني ، اخبره بها محمد بن مزيد بن ابي الازهر ، حدثه بذلك الزبير بن بكار الذي حدثه عمر بن ابي بكر الموصلي عن عبد الله بن مصعب عن ابيه ، والاولى ، حدث بها ابن الكلبي عن ابيه ، وصاحب الاغاني في هذا الشان مقدم على المبرد ، وان كان — كما قال الدكتور عزت حسن انه من مصادر الاصفهاني ، فليس بلازم ان يكون الرجل مصدرا في كل ما قال ولو اخطأ اوسها ومما يتصل بالخطأ في النسبة ، ما وقع للمبرد ايضا في كتابه هذا ، من قصة الوباء الواقع في العراق ، وتوفي به المغيرة سنة ٥٠ وهو وال فقد ذكر في هذه القصة ، ابا موسى الاشعري الذي كان قد مضى على وفاته سبع او ست سنوات ، وقصة ابي موسى مذكورة بالكامل لابن الاثير وغيره ، وكانت في طاعون عمواس بالشام ولم تكن في طاعون الكوفة بالعراق ، والمكان الذي صحف بهذه ، انما هو « دابق » قرية بشمال سورية قرب حلب ، كما يقول ياقوت ، وليس مرج دابق كما يقول ، الدكتور صالح الاشقر ، فالمرج انما اضيف اليه ، ولايعقل ان يفر الناس في الطواعين الى المروج ، بل الى الاماكن العالية بالجبال ، كما ذكر المؤرخون في هذه القصة بالذات .

نكتفي بهذا في ملاحظتنا على كتاب التعازى، ونود ان يتنبه الى الاختلافات الواردة في نص الاشعار ، عما هي في غير هذا الكتاب ، بما تسبب بعضه في كسر احيانا ، فلا شك ان هذا يتحمله الناسخ ، لا المبرد رحمه الله .